# الفصل الأول

## نشأته والعصر الذى ظهر فيه

ولد جمـال الدين الأفغانى سـنة ١٨٣٨م (١٢٥٤ هجرية)، فى «سـعد آباد» إحدى القرى التابعة لخطة (كنـر) من أعمال (كابل) عاصمة الأفغان، ووالده السـيد صغتر من سادات (كنر) الحسينية، ويتصل نسبه بالسـيد على الترمذى المحدث المشهور، ويرتقى إلى سيدنا الحسين بن على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، فالمترجم من السلالة النبوية الطاهرة، ويجرى فى عروقه الدم العربى الأصيل، ومن هنا جاء التعريف عنه بالسيد جمال الدين الحسينى الأفغانى.

وقد زعم بعض المتشـككين أو المغرضـين أن جمال الدين إيرانى لا أفغانى، وهو زعم مختلق يراد منه التشـكيك فى أفغانية السيد العظيـم، ويدحضه ما اتفـق عليه رواة من معاصريـه بأنه أفغانى الموطن وتسميته طيلة حياته «جمال الدين الأفغانى» وما قاله رحمه الله عن نسـبه، فقد قرر أنه أفغانى صميم، قال مرة «لقد جمعت ما تفرق من الفكر، ولمت شـعث التصور، ونظرت إلى الشرق وأهله، فاسـتوقفتنى الأفغان، وهى أول أرض مس جسـمى ترابها»، وقال مـرة أخرى «إنى اضطررت لترك بـلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض».

هـذا إلى ما عرفه أقرب الناس إليه مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده والأمير شكيب أرسلان، والشيخ عبد القادر المغربى وما سمعوه منه من أنه أفغانى بحت عربى بالسلالة النبوية التى ينتسب إليها.

ولعل هذا الشك الذى أثاره بعض الإيرانيين راجع إلى التفاخر بالعظماء والتنازع بين الناس على نسبته إليهم.

ولأسرة جمال الدين منزلة عالية فى بلاد الأفغان، لنسبها الشريف، ولمقامها الاجتماعى والسياسى، إذ كانت لها الإمارة والسيادة على جزء من البلاد الأفغانية، تستقل بالحكم فيه، إلى أن نزع الإمارة منها «دوست محمد خان» أمير الأفغان وقتئذ، وأمر بنقل والد السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة (كابل)، وانتقل المترجم بانتقال أبيه إليها، وهو بعد فى الثامنة من عمره، فعنى أبوه بتربيته وتعليمه، على ما جرت به عادة الأمراء والعلماء فى بلاده.

وكانت مخايل الذكاء، وقوة الفطرة، وتوقد القريحة تبدو عليه منذ صباه، فتعلم اللغة العربية، والأفغانية، والفارسية، وتلقى علوم الدين، والتاريخ، والمنطق، والفلسفة، والرياضيات، فاستوفى حظه من هذه العلوم، على أيدى أساتذة من أهل تلك البلاد، على الطريقة المألوفة فى الكتب الإسلامية المشهورة، واستكمل الغاية من دروسه وهو بعد فى الثامنة عشرة من عمره.

ثم سافر إلى الهند، وأقام بها سنة وبضعة أشهر يدرس العلوم الحديثة على الطريقة الأوربية، فنضج فكره، واتسعت مداركه، وكان بطبعه ميالًا إلى الرحلات، واستطلاع أحوال الأمم والجماعات، فعرض له وهو فى الهند أن يؤدى فريضة الحج، فاغتنم هذه الفرصة وقضى سنة يتنقل فى البلاد، ويتعرف أحوالها وعادات أهلها، حتى وافى مكة المكرمة، سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧م)، وأدى الفريضة.

## بدء حياته العملية

ثم عاد إلى بلاد الأفغان، وانتظم فى خدمة الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) المتقدم ذكره، وكان أول عمل له مرافقته إياه فى حملة حربية جردها لفتح (هراة)، إحدى مدن الأفغان، وليس يخفى أن النشأة الحربية تعود صاحبها الشجاعة، واقتحام المخاطر، ومن هنا تبدو صفة من الصفات العالية، التى امتاز بها جمال الدين، وهى الشجاعة، فإن من يخوض غمار القتال فى بدء حياته تألف نفسه الجرأة والإقدام، وخاصة إذا كان بفطرته شجاعًا.

ففى نشأة المترجم الأولى، وفى الدور الأول من حياته، تستطيع أن تتعرف أخلاقه، والعناصر التى تكونت منها شخصيته، فقد نشأ كما رأيت من بيت مجيد، ازدان بشرف النسب، واعتز بالإمارة، والسيادة، والحكم، زمنًا ما، وتربى فى مهاد العز، فى كنف أبيه ورعايته فكان للوراثة والنشأة الأولى، أثرهما فيما طبع عليه من

عـزة النفس، التى كانت من أخـص صفاته، ولازمته طول حياته، وكان للحـرب التى خاضهـا أثرها أيضا فيما اكتسـبه من الأخلاق الحربية.

فالوراثـة، والنشـأة، والتربيـة، والمرحلة الأولى فـى الحياة العملية، ترسم لنا جانبًا من شخصية جمال الدين الأفغانى.

سـار المترجم إذن فى جيش «دوست محمد خان» لفتح (هراة)، ولازمـه مدة الحصـار، إلى أن توفى الأمير، وفتحـت المدينة بعد حصـار طويل، وتقلد الإمارة من بعده ولى عهده (شـير على خان) سنة ١٨٦٤م (١٢٨٠هـ).

ثم وقع الخلاف بين الأمير الجديد وإخوته، إذ أراد أن يكيد لهم ويعتقلهم، فانضم السـيد جمال الدين إلى «محمد أعظم» أحد الإخوة الثلاثة، لما توسمه فيه من الخير، واستعرت نار الحرب الداخلية، فكانت الغلبة لمحمد أعظـم، وانتهت إليه إمارة الأفغان، فعظمت منزلـة المترجـم عنده، وأحله محـل الوزير الأول، وكاد بحسـن تدبيره يسـتتب الأمـر للأمير، ولكن الحـرب الداخلية، ما لبثت أن تجددت، إذ كان (شـير على) لا يفتأ يسعى لاسترجاع سلطته، وكان الإنجليز يعضدونه بأموالهم ودسائسـهم، فأيدوه وناصروه، ليجعلوه من أوليائهم وصنائعهم، وأغدق (شـير على) الأموال على الرؤسـاء الذين كانوا يناصرون الأمـير محمد أعظم «فبيعت أمانات ونقضت عهود، وجددت خيانات» كما يقول الأسـتاذ الإمام الشيخ

محمد عبـده، وانتهت الحرب بهزيمة محمد أعظم، وغلبة شـير على، وخلص له الملك.

بقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسه الأمير بسوء؛ «احترامًا لعشـيرته وخوف انتقاض العامة عليه حميـة لآل البيت النبوى» وهنـا أيضا تبدو لك مكانة المترجـم، ومنزلته بين قومه، وهو بعد فى المرحلة الأولى من حياته العامة، ويتجلى اسـتعداده للاضطلاع بعظائم المهام، والتطلع إلى جلائل الأعمال، فهو يناصر أميرًا يتوسم فيه الخير، ويعمل على تثبيته فى الإمارة، ويشـيد دولة يكون له فيها مقام الوزير الأول، ثم لا تلبث أعاصير السياسـة والدسـائس الإنجليزيـة أن تعصف بالعـرش الذى أقامه، فيـدال من أميره، ويغلب علـى أمره، ويلوذ بإيران لكى لا يقـع فى قبضة عدوه، ثم يمـوت بها، أما المترجم فيبقى فى عاصمة الإمارة، ولا يهاب بطش الأمـير المنتصر، ولا يتملقه أو يسـعى إلى نيل رضـاه، ولا ينقلب على عقبيه، كما يفعـل الكثيرون من طلاب المنافع، بل بقى عظيمًا فـى محنته، ثابتًا فى هزيمته، وتلك لعمرى ظواهر عظمة النفس، ورباطة الجأش، وقوة الجنان.

وهـذه المرحلـة كان لهـا أثرها فى الاتجاه السياسـى للسـيد جمال الديـن، فقد رأيت مـا بذلته السياسـة الإنجليزية لتفريق الكلمة، ودس الدسائس فى بلاد الأفغان، وإشعال نار الفتن الداخلية بهـا، واصطناعهـا الأولياء من بين أمرائها، ولا مـراء فى أن هذه

الأحداث قد كشفت للمترجم عن مطامع الإنجليز، وأساليبهم فى الدس والتفريق، وغرست فى فؤاده روح العداء للسياسة البريطانية خاصة، والمطامع الاستعمارية الأوربية عامة، وقد لازمه هذا الكره طول حياته، وكان له مبدأ راسخا يصدر عنه فى أعماله وآرائه وحركاته السياسية.

## رحيله إلى الهند

لم ينفك الأمير (شير على) يدبر المكايد للسيد جمال الدين، ويحتال للغدر به، فرأى السيد أن يفارق بلاد الأفغان، ليجد جوًّا صالحًا للعمل، فاستأذنه فى الحج، فأذن له، فسار إلى الهند سنة ١٨٦٩م - ١٢٨٥هـ، وكانت شهرته قد سبقته إلى تلك الديار، لما عرف عنه من العلم والحكمة، وما ناله من المنزلة العالية بين قومه، ولم يكن يخفى على الحكومة الإنجليزية عداؤه لسياستها، وما يحدثه مجيئه إلى الهند من إثارة روح الهياج فى النفوس، وخاصة لأن الهند كانت لا تزال تضطرم بالفتن على الرغم من إخماد ثورة سنة ١٨٥٧م، فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته الحكومة بالحفاوة والإكرام، ولكنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها، وجاء أهل العلم والفضل يهرعون إليه، يقتبسون من نور علمه وحكمته، يستمعون إلى أحاديثه وما فيها من غذاء للعقل والروح، والحث على الأنفة وعزة النفس فنقمت الحكومة منه اتصاله بهم،

ولم تـأذن له بالاجتماع بالعلماء وغيرهم مـن مريديه وقصاده، إلا على عين مـن رجالها، فلم يقم هناك طويلاً، ثـم أنزلته الحكومة إحدى سفنها فأقلته إلى السويس.

## مجيئه مصر لأول مرة

جاء مصر لأول مرة أوائل سـنة ١٨٧٠م (أواخر سنة ١٢٨٦هـ)، ولم يكـن يقصد طول الإقامة بها، لأنه إنما جاء ووجهته الحجاز، فما أن سمع الناس بمقدمه حتى اتجهت إليه أنظار النابهين من أهل العلم، وتردد هو على الأزهر، واتصل به كثير من الطلبة، فآنسـوا فيه روحًا تفيض معرفة وحكمة، فأقبلوا عليه يتلقون بعض العلوم الرياضية، والفلسفية، والكلامية، وقرأ لهم شرح (الإظهار)[1] فى البيت الذى نزل بـه بخان الخليلى، وأقام بمصر أربعين يوما، ثم تحول عزمه عن الحجاز، وسافر إلى الآستانة (استنبول).

قال الشـيخ محمد عبده عن تتلمذه لجمال الدين: «وقد صاحبته من ابتداء شـهر المحرم سـنة ١٢٨٧هـ وأخـذت أتلقى عنه بعض العلـوم الرياضية والحكمية (الفلسـفية) والكلاميـة وأدعو الناس إلى التلقى عنه كذلك، وأخذ مشـايخ الأزهـر والجمهور من طلبته يتقولـون عليه وعلينا الأقاويـل ويزعمون أن تلقى تلـك العلوم قد يفضى إلى زعزعـة العقائد الصميمة وقد يهوى بالنفس فى ضلالات

(١) متن مختصر فى علم النحو لمؤلفه البركوى.

تحرمها خيرى الدنيا والآخرة، فكنت إذا رجعت إلى بلدى عرضت ذلك على الشيخ درويش[1] فكان يقول لى: إن الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه، وما تقرب أحد إلى الله بأفضل من العلم والحكمة، فلا شىء من العلم بممقوت عند الله ولا شىء من الجهل بمحمود لديه، إلا ما يسميه بعض الناس علمًا وليس فى الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلهما الإضرار بالناس»[2].

## العصر الذى ظهر فيه

أخذ النضج السياسى لجمال الدين الأفغانى يتكون حوالى منتصف القرن التاسع عشر، وكان لحالة الشرق وقتئذ أثرها فى هذا التكوين، فالاستعمار الأوربى فى عنفوانه وجبروته، والأمم الشرقية إما خاضعة لهذا الاستعمار أو كانت هدفه ومقصده، ففرنسا تحتل الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م وترنو ببصرها إلى البلدان العربية المجاورة.

وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تغزو أفريقيا، كانت بريطانيا تعمل على أن تطأ أقدامها جنوب جزيرة العرب فاحتلت (عدن)

(١) خال والد الأستاذ الإمام وكان يدارسه القرآن والعلم.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للسيد محمد رشيد رضا جـ ١ ص ٢٥.

سنة ١٨٣٩م، ثم أخذت تبسط نفوذها وشرورها على مر السنين فى المناطق القريبة منها والبعيدة عنها بحيث لم ينتصف القرن التاسع عشر حتى مدت شـراكها إلى الكثير من الأصقاع الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.

وكانـت تحتل الهند وتضطهد الأهلين فيهـا، وقد ثاروا عليها سـنة ١٨٥٧م للتحـرر من اسـتعمارها، ولكنها أخمـدت ثورتهم بالحديد والنار سنة ١٨٥٩م.

وكانـت تدبـر المكايـد لبلاد الأفغـان – موطن جمـال الدين – وتعمل على غزوها وضمها إلى مسـتعمراتها وباءت بالفشل المرة تلو الأخرى، ولكنها كانت ماضية فى تحقيق أطماعها واصطناع الأعوان والعملاء فيها.

وهولنده تحتل معظم جزائر الهند الشـرقية (أندونسيا) وتبسط على أهلها سلطانها الغاشم.

ومصر تكتنفها المطامع الاستعمارية وتلاحقها، فمنذ أن أخفقت بريطانيا فى حملة فريزر عليها سنة ١٨٠٧م فى مطلع القرن التاسع عشـر وفشـلت وقتئذ فى احتلالها، أخذت تترقب الفرص لتعاود تحقيق أطماعها الاستعمارية فيها، وتنافست هى وفرنسا فى بسط نفوذها السياسـى والاقتصادى عليها وانتزعت فرنسا من مصر سنة ١٨٥٤م امتياز حفر قناة السـويس، فكان ذلك غزوًا اقتصاديًّا لها، واشتد التنافس بينها وبين بريطانيا على التدخل فى شئونها.

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين كان عصر طغيان الاستعمار الأوربى فى بلاد الشرق عامة، وكان من شأنه أن يؤجج فى النفوس الحساسة مشاعر بغضه وكراهيته والسخط على المستعمرين والدعوة إلى محاربتهم ومقاومتهم.

وكانت الحالة الداخلية لبلاد الشرق بالغة منتهى السوء، فملكوها وأمراؤها يحكمونها حكما استبداديا، ولا يعترفون لشعوبهم بحقوقهم السياسية والمدنية، ولا يريدون أن يتخلوا عن سلطانهم المطلق القائم على الأهواء والشهوات، والنظم الداخلية للحكم قد استشرى فيها الفساد، والجهالة متفشية بين المواطنين، والأمية غالبة عليهم، والعقائد الدينية قد شابتها الأباطيل والخرافات، والجمود مستحوذ على العلماء والخواص، والأفكار مغلقة لا تنفذ إليها دعوة الحق أو التحرر من قيود التقاليد والأوهام.

فالاستعمار الخارجى. والاستبداد الداخلى. والتأخر والجمود الفكرى. والغفلة الشاملة، تلك هى العناصر الجوهرية لحالة الشرق فى منتصف القرن التاسع عشر.

هذه هى حالة الشرق عامة فى العصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى وكان لها ولا ريب دخل أيما دخل فى تكوين شخصيته واتجاهاته؛ والتمهيد لكفاحه.

ولكن من الحق أن نقول إن هذه الحالة لم تحرك فى نفوس معاصريه ما حركت فى نفسه، فلماذا كانت العامل المؤثر فى تكوين

شخصيته؟ لقد شعر بهذه الحالة كثير من معاصريه ولكنها لم تصل فى نفوسهم إلى درجة الثورة على الأوضاع القائمة مثل ما وصلت فى نفس جمال الدين، فما هو السر فى هذا الفارق؟ إن الجواب على هذا السؤال يبدو واضحًا جليا إذا علمنا أن الأمم يظهر فيها حينا بعد حين زعماء يحملون لواء التحرير، أو الإصلاح والتجديد، ويمتازون بناحية من نواحى العبقرية تؤهلهم للاضطلاع بأعباء هذه الرسالة ولا شك أن جمال الدين الأفغانى قد امتاز على معاصريه بعبقريته ومواهبه، فكان واحدًا من هؤلاء العباقرة الذين حملوا رسالة النهضة والحرية وغرسوها فى نفوس معاصريهم.

فالعصر الذى ظهر فيه جمال الدين الأفغانى، وظروفه وملابساته، وعبقريته ومواهبه، كان لها كلها الأثر المشترك فى تكوين شخصيته والتمهيد لكفاحه ودعوته.

## سفره إلى الآستانة وأثره فيها
## ثم رحيله عنها

وصل السيد جمال الدين إلى الآستانة، فلقى من حكومة السلطان عبد العزيز حفاوة وإكرامًا، إذ عرف له الصدر الأعظم «على باشا» مكانته، وكان هذا الصدر من ساسة الترك الأفذاذ، العارفين بأقدار الرجال، فأقبل عل السيد يحفه بالاحترام والرعاية، ونزل من الأمراء والعلماء منزلة عالية، وتناقلوا الثناء عليه، ورغبت

الحكومة أن تستفيد من علمه وفضله، فلم تمض ستة أشهر حتى جعلته عضوًا فى (مجلس المعارف)، فاضطلع بواجبه، وأشار بإصلاح مناهج التعليم.

ولكن آراءه لم تلق تأييدًا من زملائه، واستهدف لسخط شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى، إذ رأى فى تلك الآراء ما يمس شيئًا من رزقه، فأضمر له السوء، وأرصد له العنت، حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧هـ، (ديسمبر سنة ١٨٧٠م)، فرغب إليه مدير دار الفنون أن يلقى فيها خطاباً للحث على الصناعات، فاعتذر بادىء بدء بضعفه فى اللغة التركية، فألح عليه، فأنشأ خطابًا طويلاً كتبه قبل إلقائه، وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية، فأقروه واستحسنوه.

وألقى السيد خطابه بدار الفنون، فى جمع حاشد من ذوى العلم والمكانة، فنال استحسانهم، ولكن شيخ الإسلام اتخذ من بعض آرائه مغمزًا للنيل منه بغير حق ورميه بالزيغ فى عقيدته، واغتنمها فرصة للإيقاع به، وألب عليه الوعاظ فى المساجد، وأوعز إليهم أن يذكروا كلامه محفوفا بالتفنيد والتنديد، فغضب السيد لكيدة شيخ الإسلام، وطلب محاكمته، ولكن الحكومة انحازت إلى شيخها، وأصدرت أمرها إلى المترجم بالرحيل عن الآستانة بضعة أشهر، حتى تسكن الخواطر، ويهدأ الاضطراب، ثم يعود إليها إن شاء، ففارقها مهضومًا حقه، ورغب إليه بعض مريديه أن يتحول إلى الديار المصرية، فعمل برأيهم وقصد إليها.

على أن جهاده فى تركيا قد ظهر أثره على مر السنين فليس يخفى أن (مدحت باشـا) الملقب بأبى الأحرار فى تركيا قد وضع مشـروع الدسـتور وأعلن القانون الأساسى (الدستور) سنة ١٨٧٦م، حقا إن البرلمان العثمانى الذى انتخب على أساسه لم يكد يجتمع حتى ألغى اجتماعه فى أوائل سـنة ١٨٧٨م بأمر السـلطان عبد الحميد، ونفى واضع الدستور مدحت باشـا وعاد الحكم المطلق فى تركيا، على أن البذرة التى وضعها جمال الدين سـنة ١٨٧٠م قد أثمرت على مدى السنين حتى حدث الانقلاب العثمانى وعاد الدستور سنة ١٩٠٨م.

❑❑❑